تعقيب على مقال الدكتور عبد الله حسين البار"با كثير الفنان في الميزان"

نشر مؤلفات باكثير هو الإنصاف الحقيقي له

عبدالحكيم عبدالله الزبيدي❖

سعدت بالملف الذي أصدرته جريدة" الثورة" في" الملحق الثقافي" عن الأديب الكبير علي أحمد باكثير في٢٠٠١/١٢/٣ بمناسبة ذكرى وفاته. ولقد كانت لفتة كريمة درجت عليها" الثورة" منذ فترة نرجو لها الاستمرار. ومن المقالات التي استوقفتني في الملف مقال الدكتور عبد الله حسين البار الذي كان تحت عنوان" باكثير الفنان في الميزان". ولي أربع ملاحظات أو تعليقات على بعض ما ورد في المقال أرجو أن تتسع لها صفحات "الملحق الثقافي" كما أرجو أن يتسع لها صدر الدكتور" البار".

بداية أود أن أقرر مع الدكتور البار بأن باكثير بشر ولا أحد من محبيه يزعم له العصمة وليس أدبه قرآنا منزها عن العيب والخطأ ،هذه حقائق بديهية لا ينكرها إلا جاهل وباكثير نفسه هو أول من انتقد أدبه ،فقال بمنتهى الصراحة والوضوح في كتابه" فن المسرحية":

:لقد أخطأت في مسرحية كذا وأصبت في مسرحية كذا. ومحبو باكثير لا يخشون عليه من النقد ،ذلك أن النقد لن ينتهي إلا لمصلحة باكثير وإن أبدى بعض الملاحظات على أدبه وتناوله فهذا لن يزيده إلا توهجاً وتألقا.

وعليه فإن الملاحظات التالية ليست دفاعا عن باكثير فباكثير ليس بحاجة إلى من يدافع عنه ،وليست رداً على ما ورد في المقال،ولكنها آراء شخصية فإن أصبت فيها فذاك وإن أخطأت فالأخير أردت ،وفوق كل ذي علم عليم.

الملاحظة الأولى:هي أن الدكتور البار حشد في مقاله الذي شغل نصف صفحة من صفحات الجريدة العديد من الأحكام على شعر باكثير وروايته ومسرحه ،وكنت أتمنى عليه لو خصص مقالة لحكم واحد من تلك الأحكام وقدم لنا المبررات والاستشهادات التي وصلت به إلى إصدار ذلك الحكم فسيكون ذلك- في رأيي- أجدى وأنفع للقارئ من حشد الأحكام دون دليل عليها. فعلى سبيل المثال أصدر الدكتور البار حكمة على شعر باكثير بجرة قلم فقال: وتراءى باكثير شاعراً من شعراء الصف الثاني فأنت لاتجد فيه عبقرية شوقي ولاجهارة الجواهري ولا تحليق عمر أبي ريشة أو إبراهيم ناجي ولا الحامد" ولا أريد هنا أن أناقش تلك المقولة أو أجادل فيها ،ولكني فقط أتساءل كيف تسنى للدكتور البار إصدار ذلك الحكم وشعر باكثير غير مجموع في ديوان مطبوع ولم يصدر منه حتى الآن إلا" شعر الصبا" وهو كما يدل عليه العنوان الشعر الذي قاله باكثير صبيا؟

إن إصدار ذلك الحكم- في رأيي- فيه الكثير من الحيف على باكثير الذي لم يدرس شعره- حسب علمي- إلا في رسالة علمية واحدة هي رسالة الدكتور عبد القوي الحصيني من جامعة صنعاء ،ولم يتح لي الاطلاع عليها بعد حيث أنها لم تطبع في كتاب حسب علمي.فإن كان الدكتور البار قد توصل إلى هذه النتيجة بعد أن درس شعر باكثير دراسة أكاديمية استقرأ فيها كل شعر باكثير فنرجو منه أن ينشر تلك الدراسة وسنقبلها منه ،وعلى من يخالفه في الرأي أن يدرس شعر باكثير دراسة أكاديمية فيخرج بالنتيجة التي يطمئن إليها.

وبنفس الطريقة أصدر الدكتور البار حكمه على روايات باكثير" وباكثير من كتاب الرواية وله منها خمس أما اثنتان فمما إذا قراتهما أنفت عن الرجوع إليهما مرة أخرى وهما(سيرة شجاع)و(النهر الخالد)...الخ" ولعله يقصد(ليلة النهر) إذلا اعلم لباكثير رواية بعنوان(النهر الخالد) كذلك هناك رواية سادسة لباكثير بعنوان(الفارس الجميل) نشرت في كتاب بعد وفاته لم يشر إليها الدكتور البار.ومرة أخرى أنا لا أعترض على تلك الأحكام من حيث هي أحكام وإنما أتساءل عن الحيثيات والمبررات التي قادت إليها. وليت الدكتور البار يخصص مقالا عن إحدى هذه الروايات ليقدم فيه وجهة نظره مؤيدة بالأدلة والبراهين ،وهي بعد وجهة نظره التي نجلها ونحترمها وإن اختلفنا معها. فالدكتور عبد العزيز المقالح- مثلا-رأى في رواية باكثير(الثائر الأحمر) أنها تمجيد للاشتراكية وعدها" تحية معاصرة لتلك الوثبة التطورية التي جاءت قبل ألف عام تبشر بنعيم الاشتراكية (قراءة في الأدب المعاصر- دار العودة- دون تاريخ- ص ١٠٠) وقد أعاد الدكتور المقالح نشر دراسته تلك في كتابة القيم(علي أحمد باكثير رائد التحديث في الشعر العربي المعاصر- دار الكلمة- دون تاريخ) وهي وجهة نظر تخص الدكتور المقالح وحده ،قد نتفق أو نختلف معه فيها ولكنه قدم مبرراته ولمن يختلف معه أن يناقشه في تلك المبررات والاستدلالات. أما إصدار الحكم بجرة قلم وكأنها حقيقة مسلم بها ،فهذا فقط هو ما لا نقبله من أحد.

ومن هذه الأحكام التي تحتاج إلى التفصيل أن((مسرحيات باكثير أو كثير منها يكشف عمق الغربة التي كان يعيشها باكثير في المجتمع المصري.. ومن هنا يلحظ على بعض مسرحياته أجواء المجتمع الحضرمي" وهذه الاستنتاجات ليس فيها ما يشين باكثير إن صحت ،ولكننا في شوق إلى مقال مفصل يوضحها ويفصلها ،ولعل الدكتور البار يمن به علينا.

الملاحظة الثانية: هي على مقولة الدكتور البار:((ومشكلة باكثير مع النقاد وخصامه معهم تكمن في هذه المسألة هل نقوم أدب باكثير أو ننصفه؟

وعندي أن الأولى أولى ،وأما الثانية فلا سبيل إلى العثور على الطريقة المؤدية إليها ،أيكون الإنصاف بنشر أعماله؟لقد نشرت ،أم يكون بدرسها؟ لقد درست.أم يكون بتقديمها على ما سواها؟ هنا لاسبيل إلى ذلك إلا بتقويمها تقويماً نقدياً لا يتحكم فيه الهوى ولا الرغائب".

وبداية أتساءل: كيف توصل الدكتور البار إلى أن مشكلة باكثير مع النقاد تكمن في هذه المسألة؟ الذي اعلمه هو أن مشكلة باكثير في أخريات حياته كانت في منع إنتاجه من النشر ومنع مسرحياته من العرض على المسرح. ولهذا توفي باكثير والكثير من أعماله مخطوط لم يطبع.ولكن لندع هذه العبارة جانبا ولنحاول مناقشة السؤال نفسه: هل نقوم أدب باكثيرأو ننصفه؟

وإذا كان الضمير في" ننصفه" يعود على أدب باكثير" فإن التقويم البعيد عن الهوى والرغائب- حسب تعبير الدكتور البار- سيؤدي حتماً إلى الإنصاف فلا خلاف إذن ،أما إذا كان الضمير يعود على باكثير نفسه ،فيكون السؤال:هل نقوم أدب باكثير أم ننصف باكثير؟ ففي رأيي أن الموضوعين مرتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً ،فكيف نقوم أدب باكثير إن لم ننصف باكثير ؟

وهنا نأتي لما نقصده بالإنصاف.وهنا أيضا أختلف مع الدكتور البار في قوله((أما الثانية- ..أي الإنصاف- فلا سبيل إلى العثور على الطريقة المؤدية إليها" فالسبيل واضح والطريقة بينة.

إن إنصاف باكثير- في رأيي- ليس بالاحتفال به كل عام ،وليس بكتابة المقالات التي تقدمه وتقدم أدبه للقراء من خلال وجهات نظر شخصية متفاوتة ومتباينة ،وليس إنصاف باكثير في التباكي عليه واجترار ما تعرض له في أخريات حياته من تعتيم ومحاربة ومنع من النشر وإظهاره بمظهر المظلوم المفترى عليه ،فكل ذلك لا يخدم باكثير- في رأيي- في شيء بل بالعكس ربما يسعى إليه. إن إنصاف باكثير- من وجهة نظري- تأتي في الخطوات التالية:

١- نشر جميع مؤلفاته المخطوطة وإعادة طبع ما طبع منها وجعلها في متناول القارئ والباحث.

٢- جمع شعر باكثير في ديوان جامع ووضعه في متناول القراء والباحثين.

٣- عرض أعماله المسرحية- أو بعضها على الأقل- على المسرح والتلفزيون ليشاهدها الجمهور.

٤- ترجمة أعماله إلى اللغات الأخرى ،خاصة الإنجليزية والفرنسية،واللغات الإسلامية غير العربية ،وذلك لكي يطلع عليها القراء الذين لا يجيدون اللغة العربية.

٥- طباعة الدراسات والرسائل الأكاديمية التي صدرت عن أدبه ،إذ أن أغلبها لم يطبع حسب علمي.

إن إنصاف باكثير- في رأيي- يأتي في نشر أدبه كله: شعره ورواياته ومسرحياته، بوسائل النشر المعروفة من طبع وتمثيل سواء على المسرح أو التلفزيون ،وذلك لكسر الحاجز بين أدب باكثير وبين القراء والجمهور الذين كتب لهم باكثير أدبه،وبعد ذلك لندع الجمهور يحكم ويقوم أدب باكثير في دراسات أكاديمية رصينة ،وقد نتفق أو نختلف معها ،ليس هذا المهم،المهم أن تدرس مؤلفاته وفق منهج علمي استقرائي جاد غير خاضع للهوى أو الرغائب- حسب تعبير الدكتور البار.

وهنا نأتي لعبارة الدكتور البار حين قال: أيكون- أي الأنصاف- بنشر أعماله- لقد نشرت" ولا أدري كيف تأتى للدكتور البار أن يقرر هكذا بكل بساطه أن أعمال باكثير قد نشرت،والذي أعلمه أن هناك

(٩) مسرحيات نثرية لم تطبع بعد، بالإضافة إلى المسرحيات القصيرة التي

عبدالله حسين البار

ذكر الدكتور محمد أبو بكر حميد أنها تبلغ زهاء السبعين ،ولم ينشر باكثير في حياته منها إلا مجموعتين هما(من فوق سبع سماوات) و(هكذا لقي الله عمر) وتحوي كل منهما سبع مسرحيات تاريخية قصيرة. وكذلك المسرحيات السياسية القصيرة التي لم ينشر منها باكثير في حياته إلا مجموعة واحدة بعنوان (مسرح السياسة) تحوي ١٢ مسرحية سياسية قصيرة ،وتبلغ هي الأخرى- حسب رواية الدكتور حميد- سبعين تمثيلية(انظر سلسلة مقالات الدكتور حميد في جريدة البلاد تحت عنوان: قصتي مع تراث باكثير، الحلقة٨ بتاريخ ١٩٩٢/١/٢٧)،أما قول الدكتور البار بأن أعمال باكثير قد درست ،فإن كان يعني الدراسات الأكاديمية فالذي أعلمه أنها تعد على أصابع اليد الواحدة ،ولا تفي- في رأيي- بما يستحقه أدب باكثير من دراسات تتناسب مع غزارته وتنوعه وتناوله لمختلف القضايا الأدبية والسياسية والاجتماعية بالإضافة إلى أن أغلب هذه الدراسات الأكاديمية لم تطبع في كتاب وبالتالي لم يطلع عليها إلا القلة.

أما تساؤله أيكون إنصاف أدب باكثير بتقديمه على ما سواه؟فهذا لا يكون بقرار وإنما يأتي تلقائيا وطبيعيا إذا ما نشر أدب باكثير وعرض ،فإن ما يستحق التقديم منه سيتصدر من تلقاء نفسه ،إلا أنني أود أن أضيف إلى ما تفضل به الدكتور البار من وسائل وسبل إنصاف أدب باكثير- وأؤكد أن الهدف هو إنصاف أدب باكثير ،أما باكثير نفسه فقد مشى إلى رب منصف عادل وسيتولى عز وجل إنصافه- أقول إن الترجمة هي من عوامل إنصاف أدب باكثير. فلا أعلم مما ترجم لباكثير إلا مسرحية(سر شهرزاد) بالفرنسية التي صدرت عن دار الآداب بالقاهرة- دون تاريخ مع مقدمة بقلم جابرييل بقطر.

وقد علمت مؤخرا أن أستاذاً بقسم الدراسات العربية بجامعة غرب الكاب بجنوب أفريقيا هو الدكتور ياسين محمد قد ترجم ثلاث مسرحيات من المسرحيات التاريخية القصيرة لباكثير إلى الإنجليزية وأصدرها عام ١٩٩٥م في كتاب يحمل عنوان إحداها وهي الخاتم The Ring Three MoraI plays وقد تم تمثيلها وبثها إذاعيا في(الإذاعة ٧٨٦) بجنوب أفريقيا وأدت إذاعتها إلى دعوة الكتاب المحليين إلى مسابقة لكتابة تمثيليات إذاعية على أن تذاع أفضل ثلاثة أعمال ضمن الإذاعة ٧٨٦, وقد تلقفت الجمعيات الأسلامية في أمريكا الشمالية هذه المسرحيات وقررتها(the IsIamic Foundation of North America) (ضمن منهج الصف السادس الابتدائي. فكيف لو ترجمت روائعه الأدبية الأخرى مثل: وإسلاماه ،والثائر الأحمر،وغيرها؟

الملاحظة الثالثة: على مقال الدكتور البار هي فيما يتعلق بريادة باكثير للأدب الإسلامي ،ولن أعلق على موضوع الريادة بحد ذاته فهذا كغيره مما يتعلق بأدب باكثير بحاجة إلى دراسات أكاديمية لتثبته أو تنفيه. ولن أرد أيضا على تساؤله عن مسرحية(هاروت وماروت) وهل هي إسلامية أم لا ،فقد كفاني الدكتور أبو بكر البابكري ذلك بمقالة عن المسرحية في نفس العدد من الملحق الثقافي ،ولكني سارد على تساؤله عن مسرحية(التوراة الضائعة) هل هي إسلامية؟

فاقول نعم ،أما قول الدكتور البار((وكيف يفرق الإسلام بين اليهودية والصهيونية وهما في القرآن شيء واحد؟))

فأقول إن القران الكريم- نفسه- قد فرق بين اليهود الذين يعادون المسلمين والذين لا يعادونهم فقال عز وجل في سورة(الممتحنة)-(اينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم والله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)(آية ٨و٩) وهذه الآيات وإن نزلت في أم أسماء بنت أبي بكر التي كانت على الشرك يومئذ ،فإن العبرة- كما يقول الفقهاء- بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والنبي- صلى الله عليه وسلم- حين قدم المدينة المنورة صالح اليهود الذين فيها وعاهدهم ولم يبدأهم بقتال ،وحين نقض بنو النضير عهدهم مع المسلمين حاصرهم النبي وأجلاهم عن المدينة ولم يأخذ اليهود الآخرين كبني قريضة بذنب بني النضير ،ولم يحارب بني قريضة إلا عندما نقضوا هم أيضا عهدهم مع المسلمين ،ولقد عاش اليهود في ظل الدولة الإسلامية كمواطنين لهم حقوق أهل الذمة ،وقد نبغ منهم العلماء والأدباء بل وتقلد بعضهم في الأندلس الوظائف في الدولة. وهكذا فرؤية باكثير في(التوراة الضائعة) هي رؤية إسلامية ،فنحن لا نحارب اليهود لمجرد أنهم يهود بل لأنهم احتلوا ديار الاسلام وطردوا المسلمين من ديارهم وذبحوهم ونكلوا بهم. فأي يهودي لا يقر هؤلاء اليهود على ما فعلوا بالمسلمين في فلسطين ولا يناصرهم فلا مشكلة بيننا وبينه.

ورؤية باكثير هذه متناسقة في كل أعماله ،ففي(ملحمة عمر) لا يوافق عمر- رضي الله عنه- أهل إيلياء على شرطهم أن لا يدخلها اليهود:

- صفرونيوس: لقد كانوا ممنوعين أن يطأوا ترابها في عهد هرقل

- عمر:دعني من هرقل ،إنكم لا تريدون أن يساكنكم اليهود ليس من أجل أنهم من أتباع موسى عليه السلام ولكن لغدرهم وجشعهم وقسوتهم وكبريائهم على من سواهم ،ونحن قد أخرجناهم من مدينتنا كذلك ليس من أجل أنهم يهود بل لما غدروا ونقضوا العهد ومالاوا العدو.

الملاحظة الرابعة: والأخيرة هي قول الدكتور البار" وباكثير ممن لا يصبرون على الإبداع فيجيء خاليا من الصنعة وإحكام الأداء- كما في(حبل الغسيل) ومسرحيات أخر" وسأورد هنا مقولة سيد قطب- رحمة الله- عن مسرحية(شيلوك الجديد) في مقال بمجلة الرسالة عام ١٩٤٦م عند صدور المسرحية،حيث قال: أنا الذي زعمت لنفسي أنني ممن يعرفون هذه القضية، اشهد أن رواية شيلوك الجديد قد أطلعتني على أنني كنت واهما فيما زعمت،مغاليا في حقيقة اهتمامي بهذه القضية المقدسة ،فلقد كشف لي الأستاذ باكثير عن حقيقة وضع القضية وحقيقة العوامل التي تتصارع فيها، بما لم يكشفه لي كل ما وصل إلى يدي خلال خمسة عشر عاماً أو تزيد" وفي هذه العبارة دلالة على أن باكثير كان يحيط بأدق تفاصيل المواضيع التي يتناولها في أدبه ،ولقد ذكر باكثير في مقدمته لمسرحية(إله إسرائيل) أن فكرتها ظلت مختمرة في ذهنة لمدة خمسة عشر عاماً ،فهل يتسق ذلك مع مقولة الدكتور البار بأن باكثيرممن لا يصبرون على الإبداع؟

مرة أخرى نحن بحاجة إلى التفصيل والأدلة والبراهين ،أما(حبل الغسيل) فإذا كان هذا هو رأي الدكتور فيها فإن ناقداً كبيراً مثل رجاء النقاش كان له رأي آخر فيها حين قال"مسرحية ممتازة في حوارها وشخصياتها والموضوع التي تعالجه.. والعلاج المسرحي في غاية الأحكام والجودة(راجع مقال الدكتور: محمد أبو بكر حميد: معركة حبل الغسيل بجريدة الشرق الأوسط ١٩٩٤/١١/٩م ص ٢٦).

❖مؤسسة موقع باكثير على شبكة الانترنت

النقد يزيد إبداع باكثير تألقاً .. هل حقا باكثير من شعراء الصف الثاني ؟!

كتاب في مدينة

نبيلة الزبير

■ ،، من حقي أن أحلم أن الكلمة - عربياً - ستصبح موازية للرصاصة .. لم لا أوسع في الحلم..؟ .. لم لا توسعين في الحرب أجبت صديقتي التي عاودها فجأة خطاب «الثورية» .. وبالمناسبة هذا الخطاب وارد، وكل المقولات التي من نوع «طاخ طاخ» والتي يبدو أن الكثير من سكان الخارطة العربية لا يزال ينطمر تحتها فلا تكاد زوبعة تثير غباره حتى ترى الأيادي الغارقة تلوح : سنحارب..! هذا في الأحوال العادية ، فكيف في الأحوال الراهنة على وجه العموم أو على وجه العالم .. في هذه الظروف التي ليست إلا حرباً .. حرب من كل وجه وعلى كل صعيد..

والحق أن انعقاد مؤتمر «كتاب في جريدة» في هذه الظروف - الحرب - مثير ليس فقط للإعجاب والدهشة .. إنه مثير للحلم ، أنا أحلم ، لا، أنا أحارب طبعاً ، بل أنا أقرأ ، من يدري عل ذلك نوع من حرب ، خاصة وأنها - القراءة - بأهظة الكلفة ، ومتعسرة إلى مستحيلة أحياناً .. ليس نسبة إلى سعر الكتاب فقط ، بل - وذلك هو الأهم - إلى ندرته..

سيوافقني الكثير من أصدقائي في صنعاء الذين أتبادل معهم الكتب بكثير من التعب (والنسيان؟) إلى أنه حلم أن تكون القراءة ، تلك الحادثة الاستثنائية ممكنة وفي متناول اليد ، أي يد ، حتى العزلاء .. وسأعذر لصديقي الكثير من الولع بالكتب ، حلمه الذي بلغ حدّ الشره .. إذ يريد أن يصدر بدلاً من «كتاب في جريدة» أن يصدر «كتاب مع جريدة» .. أي أن يصدر إلى جوار الجريدة كتاب بضلفتين قابل للدخول فيه وتبادله وأرشفته .. أنا أحلم أقل ، لا أدري لماذا .. ربما لأنني امرأة ليس لها حلم الذكرين ، أريد أن تصلني كافة الجرائد (التي فيها كتاب) وبانتظام ، هكذا سيحصر حلمي أن أخذ حقي في القراءة تماماً كما أمنح وبسخاء هبة القهر ورضوض الحروب والفقر الذي ينسبونه إلى مشكلات العالم الاقتصادية..

وبمناسبة الإشارة إلى الحلم والمرأة أوالمرأة والكتاب ، تجدر الإشارة وبكثير من الإعزاز إلى الحضور اللافت الذي شكلته المرأة في هذا المؤتمر تحديداً ، وأنا هنا ألمح إلى خطاب السيدة «بهية الحريري» وإلى وجودها عموماً في مشروع بهذه الأهمية وفي موقع يمكن له أن يثري الشأن النسوي ويؤثر إيجاباً في الكثير من القضايا الاجتماعية الإنسانية .. لقد أفصح خطابها عن وعي بقضايا دخولنا العصر .. إذ الاهتمام بالأدب الشاب وأدب الهامش هما الرهان على الحضور والمواكبة ..والحقيقة أن المرأة موجودة في هذا المشروع «كتاب في جريدة» في أكثر من موقع فاعل ، ويكفي أن تكون إنسانة مبدعة في الأدب والنقد والفعل الاجتماعي عموماً مثل الدكتورة «يمنى العيد» يكفي أن تكون مثل هذه الإنسانة في «الشهود» كي يصبح هذا المشروع حلماً متحققاً بامتياز .. بالإضافة طبعاً إلى الكفاءات غير العادية التي نفخر بإسهامها من أكثر من موقع في إنجاح هذا المشروع..

بادرة انعقاد «كتاب في جريدة» في صنعاء خطوة قوية قامت بها مؤسسة الثورة ، وهي من الإنجازات الطيبة التي تحسب لوزارة الإعلام وتشجع على أن نفرط في أحلامنا ، خاصة بعد تلك البذرة التي فاجأنا بها الوزير الشاب حسين العواضي وقد أصبحت ظلاً وارفاً لكل عشاق القراءة .. أعني بذلك (المركز الإعلامي) بصنعاء الذي يتوافر على الكثير من المناشط .. بالإضافة إلى الكتاب - موضوع الحلم..

أخيراً - وعلى هامش هذا الحلم - كنت أتمنى لو أن فعاليات إبداعية (أدبية - نقدية - ثقافية) قد أفرد لها مجال من وقت ومن مشاركات جماهيرية ، خاصة وأننا جماهير عطشى .. أريد أن أقول أننا جماهير نكتب ونقرأ على الرغم من أنف الحروب..

■ يعيد الملحق نشر المقال لحدوث اخطاء عند ارساله بالفاكس